

التعلم في الجزائر خلال الفترة العثمانية

تشهد كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني أن التعليم كان منتشرًا وأن كل جزائري تقريبًا كان يعرف القراءة والكتابة، وقد كان التعليم حراً من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية، لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل إلى معرفة وفهم أسرار هذا الدين والقرآن والسنة، ولذلك كان القرآن أساساً للتعليم في الجزائر سواء كان تعليماً ابتدائياً أو ثانوياً أو عالياً، وكانت المدارس على مختلف مستوياتها تمول وتغذى بالأوقاف التي يهبها أهل الصلاح والخير من الرجال والنساء، وفي بعض الأحيان كان يهبها موظفون سامون في الدولة كعمل من أعمال الخير، فكان هناك أملاك خاصة وعقارات وأراض يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف للمعلمين وتوفير المساكن للطلبة، فالأوقاف كانت الأساس في تدعيم التعليم وحماية الطلبة والمعلمين.

ب . مستويات التعليم:

بخصوص التعليم الذي كانت ترعاه هذه الأوقاف فقد كانت على ثلاثة مستويات: الابتدائي والثانوي والعالي.

1 . التعليم الابتدائي:

بالنسبة للتعليم الابتدائي كان كل طفل بين السادسة والعاشر يذهب إلى المدرسة، والملاحظ أن هذا بخصوص الأطفال الذكور، أما الإناث فلا يذهبن إلى المدارس إلا نادراً، ولكن أصحاب البيوتات الكبيرة كانوا يجلبون أستاذاً معروفاً بصلاحيته وعلمه لتعليم البنات، وفي كل قرية صغيرة أو (دوار) كانت هناك خيمة تدعى (الشريعة) خاصة بتعليم الأطفال ويشرف عليها مؤدب يختاره سكان القرية لهذا الغرض، أما في المدن والقرى الكبيرة فقد كانت هناك تدعى (مسيد) أو مكتب، وكانت غالباً ملحقة بالوقف، وإلى جانب ذلك كل جامع تقريباً يضم مدرسة للتعليم أيضاً.

كان لكل مؤدب أجره خاصة ولكنها كانت غير قارة، فهي تختلف حسب حالة أولياء التلاميذ المادية، كانت كل أسرة تدفع على قدر حالها، وفي الأعياد وعندما يحفظ الطفل

القرآن يأخذ المؤدب أجرا إضافيا، وكثيرا ما يجمع المؤدب إلى وظيفته تحفيظ القرآن ووظيفة أخرى كالإمامة والأذان.

وكان المؤدب محل احترام سواء كان في القرية أو المدينة ويعيش بالمقارنة عيشة طيبة، وتذكر بعض المصادر أن أحد المؤدبين في قسنطينة كان يتقاضى حوالي ثلاثين فرنكا سنويا على الطفل الواحد من الهدايا والتعويض عند حفظ القرآن والأجرة المعينة، وكان لدى المؤدب حوالي 25 طفلا، فكان يناله حوالي فرنكين في اليوم بالإضافة إلى دخله من بعض الوظائف الأخرى، ولم يكن هناك رقابة رسمية على المؤدب المهم أن يكون يعرف جيدا القراءة والكتابة، أما أهل البادية فكانوا يرسلون أطفالهم للتعليم في المدن حيث يقيمون عادة مع عائلات صديقة أو يصرف عليهم مجانا من الأوقاف.

وتذكر المصادر أنه كان في كل قرية مدرستان، وكانت المدن تختلف في عدد المدارس فقسنطينة في عهد "الحاج أحمد باي" كانت تضم 86 ابتدائية، وكان يتوزع عليها حوالي 1350 تلميذا، وكان في تلمسان في نفس الفترة حوالي 50 مدرسة ابتدائية.

ومدة التعليم الابتدائي حوالي أربع سنوات يتعلم الطفل خلالها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن وأركان الإسلام وشعائر الدين، وإذا كان الفقراء يكتفون بهذا القدر من التعليم فإن الأغنياء يواصلون تعلمهم، وبذلك يدخلون المرحلة الثانوية.

2. التعليم الثانوي:

كان التلميذ يستطيع أن يواصل تعليمه الثانوي في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالأوقاف، وكان التعليم الثانوي مجانا، وكان الباي هو الذي يسمي المدرس باقتراح من الناظر، ويتلقى المدرس أجرته من الأوقاف وهي تبلغ مائة إلى مائتين من الفرنكات سنويا، وكان يسكن مجانا، وغالبا ما يجمع إلى وظيفته كمدرس وظائف أخرى كالقضاء أو الإفتاء، وكان يسود اعتقادا أن المدرس يقضي وقته يعد الدروس، ولذلك يأتيه الناس بالضروريات كالماء والزيت للمصباح، كما كانوا يأتونه يوميا بحلويات رمضان وملابس العيد، والطعام، ومن جهة أخرى التلاميذ أيضا يحصلون من الأهالي على الحلوى والزيت للمصباح وعلى السكن مجانا والماء.

كان في العاصمة وقسنطينة وتلمسان جوامع ومدارس وزوايا لإيواء التلاميذ، ففي قسنطينة حيث كان 35 جامعا و 7 مدارس، كان 150 تلميذا من 700 يحصلون على أجره سنوية من دخل الأوقاف تبلغ 36 فرنكا، وكان معظم هؤلاء التلاميذ من سكان الأقاليم وقد أعدت لهم زوايا خاصة لسكنائهم بلغت 16 زاوية.

وكان في العاصمة 6 زوايا لهذا الغرض: ثلاث لعرب الغرب واثنان لعرب الشرق، أما الأخيرة فقد أعدت لإيواء المدرسين في العاصمة واللذين ليس لهم عائلات مقيمة. أما تلمسان فقد كان فيها عدد كبير من هذه الزوايا، كما كان فيها مدرستان إحداهما مدرسة الجامع الكبير والأخرى مدرسة أولاد الإمام، وفي ضواحي تلمسان كانت أيضا مدرسة عين الحوت.

والزوايا لم تكن مقصورة على المدن، بل كانت هناك زوايا في الأرياف تقام تخليدا لأحد المرابطين ويقام بجانبها مكان للصلاة وبئر للشرب والوضوء، وتخصص الأرض لهذه الزوايا الريفية فيحرقها الأهالي ويستعمل دخلها لمساعدة المدرسين والطلبة، ويخصص أهل الخير جزءا من محصولهم السنوي للزوايا التي توجد في منطقتهم، وكانت الزوايا منتشرة ولاسيما في الغرب الجزائري، وكان في منطقة تلمسان وحدها أكثر من 30 زاوية، وهناك أخريات منتشرات في جهات الونشريس ومعسكر وسيدي بلعباس ومستغانم. أما متيجة ومنطقة جرجرة فقد كانت تضم أكثر من ثماني زوايا أشهرها زاوية البركاني قرب شرشال، وزاوية ابن علي الشريف في أقبو، وزاوية النميلي في بني موسى، الخ.

وكان يتلقى العلم في المرحلة الثانوية حوالي 3000 تلميذ في كل إقليم من الأقاليم الثلاثة، وكانت الدروس تشمل على النحو والتفسير والقرآن، وينال الطالب في النهاية (إجازة) تشهد له بأنه قدر درس جميع العلوم التي تدخل في نطاق تخصصه: والإجازة ليست شهادة مكتوبة ولكنها تعبير شفوي من المدرس إلى التلميذ، ومتى حصل التلميذ على الإجازة يصبح (طالبا) يستطيع قراءة القرآن في الجامع ويتولى وظيفة مؤدب أو كاتب.

3. التعليم العالي:

ليس هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي، والأستاذ الذي يدرس في العالي يسمى (عالما)، أما عدد الطلبة فقد كانوا بين 600 إلى 800 في كل إقليم يواصلون تعليمهم العالي، وكان الأساتذة في هذا المستوى يتقاضون أجورهم من الأوقاف أيضا، وكانت الدروس العالية تعطى في الزوايا وأهم الجوامع، ففي إقليم وهران كان الجامع الكبير في تلمسان وجامع سيدي العربي والزاوية القادرية (التابعة لأسرة الأمير عبد القادر)، وفي إقليم الجزائر كانت زاوية ابن المبارك بالقلعة، وزاوية مليانة، وزاوية بني سليمان، وزاوية ابن محي الدين، أما في إقليم قسنطينة فهناك الجامع الأخضر وجامع سيدي عقبة، وزاوية ابن علي الشريف في جرجرة.

وأهم مواد التعليم العالي هي النحو والفقه الذي يشمل العبادات والمعاملات والتفسير والحديث والحساب والفلك، بالإضافة إلى التاريخ والطب. لكن كان يغلب على الدراسة طابع العصور الوسطى وقلة التجديد والحفظ، وهناك عدد من الجزائريين درسوا وتخرجوا بهذه الطريقة في العهد العثماني، ولكنهم اختفوا في بداية الاحتلال الفرنسي. وقد كان "حمدان خوجة" ووالده من الذين درسوا على هذه الطريقة، ولكن الجزائريين المنتجين كانوا قلة، وكانت الدراسة في شكلها الذي تمّ وصفه تساعد على إخراج الموظفين في المجال الديني والكتابة ولكنها لا تساعد على إخراج المنتجين في ميدان الفكر والأدب.

مهما يكن فإن أهم المقررات التي كان يتحصل فيها الطالب على إجازة تاتخرج نذكر على سبيل المثال: في الفقه وأصوله: متن وشروح رسالة أبي زيد القيرواني، ومتن وشروح وحواشي مختصر خليل، ومتن ابن عاشور وابن الحاجب، ورسالة السنوسي بشرح البيجوري؛ وفي التفسير والقراءات: تفسير ابن عطية وابن الجوزية والثعالبي، والشاطبية في القراءات؛ وفي الحديث ومصطلحه: موطأ مالك وصحيح البخاري ومسلم ومتن البيهقي وتذكرة القرطبي؛ وفي التصوف والتوحيد: مصنفات ابن عطاء والقشيري ومتن الجزرية والإحياء للغزالي؛ وفي علم الكلام: المقاصد وشرحها للسعد والعقائد النفيسة، والإبراهيمية للسنوسي؛ وفي علوم اللغة وقواعدها: متن الكافي في العروض والجواهر المكنون والإجرمية والمغني وقطر الندى لابن هشام وألفية ابن مالك بشرح عقيل والماكودي والأشموني؛ وفي الحساب والفلك والمنطق والدررة و متن السنوسي و متن إيساغوجي (أثير الدين الأبهري) و متن السلم المرونق ...

خلاصة:

والخلاصة التي يمكن الخروج بها: هي أن التعليم كان منتشرًا ومجانياً وخاصاً ولكنه ليس تعليماً وظيفياً، فهو أقرب إلى التعب والتبرك منه إلى سلاح للحياة وخدمة الدين والعلم بمفهومه الواسع، وقد كانت الأوقاف مصدراً لغذاء العلماء والطلبة وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية، وكانت الأوقاف مشروعاً يستوي في المساهمة فيه الحاكم والمحكوم،

الراعي